

ووصلت رسالة ابن الأسود . ورفع الأمر كتابة إلى بلاط مراکش . وأصدر السلطان أمره إلى حاكم المرية بأن يرسل إليه ابن العريف ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرين شبيهين ضد تلميذيه ، أو رفيقيه ، اللذين أشرنا إليهما من قبل ، وهما أبو بكر الميورقي وأبو الحكم بن بروجان ، وحُملا على أن يغادرا محل إقامتهما ، الأول في غرناطة ، والثاني في إشبيلية .

أورد لنا مؤرخو ابن العريف قصة سجنه وإشخاصه إلى مراکش في تفصيلات وافية تماما ، وصُيغت ، كما هو طبيعي ، بتوابل من ألوان المعجزات والأساطير ، وقد أنفذ حاكم المرية أوامر السلطان فوضع ابن العريف في سفينة اتجهت به إلى مدينة سبتة . ولكن القاضي ابن الأسود أقنع الحاكم بأن من الأوفق ألا يذهب المتهم مطلق السراح ، وإنما يجب وضع القيد في قدميه ، وحينئذ أسرع الحاكم فأرسل أحد وزرائه ليلبغ السفينة في عرض البحر ، فصعد إليها ، ووضع القيود في قدمي ابن العريف . وكانت هذه الطريقة مفاجأة مؤلمة له ، واكتفى بأن صاح : « فليرعبه الله كما أربعنا » . ويضيف مترجموه : إن رسول الحاكم عندما أفلح عائدا إلى ميناء المرية ، بعد أن قيّد ابن العريف بالسلاسل ، اعترضته سفينة معادية ، مسيحية على التأكيد ، وحاصرته ، وأخذته أسيرا . وعندما هبط ابن العريف في ميناء سبتة بلغه في الوقت نفسه رسول من السلطان يحمل أوامر صريحة بإطلاق سراحه في الحال ، وعندما وجد زاهد المرية نفسه حرا ، طليقا من القيود ، أدرك أن السلطان لا يريد أن يتحمل اثم المظالم العنيفة التي أوقعها عليه إلى ما لا نهاية .

لقد أسرف حكام المرية على أنفسهم دون شك ، وغيرتهم الواضحة أدت بهم إلى كراهية ابن العريف ، وقد انزعج منها السلطان حين عرف المزيد من الكرامات والفضائل التي يزدان بها ابن العريف ، ويقولون إن زاهد المرية صاح لحظتها : « أنا لا أريد من السلطان أن يعرفني ، أما وقد عرفني فعلا ، فمن الضروري أن أراه » . وفي الحال أخذ طريقه إلى بلاط المرابطين في مراکش ، واستقبله السلطان بكل مظاهر الحفاوة والإجلال ، وأفعمه بآيات التوقير والتكريم ، وعندما سأل ابن العريف ما إذا كان يرغب في شيء كفى بتحقيقه له ، أجابه : « لا أريد شيئا ، فقط دعوني أذهب حرا حيث أشاء » ، وسارع السلطان فأمر بأن يترك حرا كما يريد ، ولكن كل شيء فيما يبدو كان عبثا ، فبعد أيام